

نصر حامد أبو زيد

”إن الكلمة والكتابة الشاهدية لا تأتي بعد الموت، إنها تشغل الحياة فيما نسميه السيرة الذاتية“¹.

لم نكن نهدف من وراء هذه الإشادة رثاء المفكر المصري نصر حامد أبو زيد، ولكننا اعتبرناها ذلك فرصة لعرض بعض من رؤاه وأفكاره التي كانت موضع جدل ونقاش دام ما يقرب من 20 سنة بين المفكرين على مختلف مشاربهم.

البدايات: العبر بالنهايات

ولد الفقيه في إحدى قرى طنطا (مصر) سنة 1943، حيث نشأ في أسرة ريفية بسيطة. وقد تحصل في البداية على دبلوم المدارس الثانوية الصناعية، قسم اللاسلكي عام 1960. وحصل فيما بعد على الليسانس من قسم اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب جامعة القاهرة سنة 1972 بتقدير ممتاز، ثم ماجستير في الدراسات الإسلامية سنة 1976 بتقدير ممتاز أيضا، و بعد ذلك دكتوراه في الدراسات الإسلامية سنة 1979 بتقدير مرتبة الشرف الأولى. شغل الفقيه عددا من الوظائف منها: فني لاسلكي بالهيئة المصرية العامة للاتصالات السلكية واللاسلكية ما بين 1961 و 1972، وأستاذ بقسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، جامعة القاهرة سنة 1972، ثم أستاذ مساعد بكلية الآداب، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة القاهرة بالخرطوم خلال الفترة من بين 1983 و 1987 وبعدها شغل منصب أستاذ زائر بجامعة أوساكا للغات الأجنبية باليابان ما بين سنتي 1985 و 1989، و جامعة ليدن بهولندا بدءا من أكتوبر 1995. تحصل عقب ذلك على كرسي ابن رشد لدراسة الإسلام و”الإنسانيات” بجامعة الدراسات ”الإنسانية” في أوترخت بهولندا سنة 2002.

¹Quintiliano, Deise, « Sartre : La rhétorique de l'épithaphe ou le mot comme cercueil », Revue *Sens Critique* - international webjournal, Le 05 mars 2005.

القضية الصغرى: "التهويل"

لقد أثارت كتابات الباحث المصري ضجة إعلامية² في منتصف تسعينيات القرن الماضي، فقد أتهم بسبب أبحاثه العلمية بالإلحاد. وارتبطت التهمة بمناسبة تقديمه أبحاث علمية للحصول على درجة أستاذ، فتشكلت لجنة من أساتذة جامعة القاهرة بينهم عبد الصبور شاهين³ الذي اتهم في تقريره الفقيده "بالكفر"، فتداعت أحداث كثيرة بسبب هذا الاتهام. ونظراً لعدم توفر وسائل قانونية في مصر للمقاضاة بتهمة الارتداد، سعى خصومه إلى الاستفادة من أوضاع محكمة الأحوال الشخصية، التي يطبق فيها فقه الإمام أبو حنيفة، إذ وجدوا فيه مبدأ يسمى "الحسبة" طالبوا على أساسه الفصل بين المفكر وزوجته. واستجابت المحكمة لهذا الطلب، وحكمت بذلك قسراً ضد الفقيده وزوجته، على أساس "أنه لا يجوز للمرأة المسلمة الزواج من غير المسلم". مما اضطرهما إلى مغادرة الوطن سنة 1995 نحو المنفى (هولندا)، فتمكن الفقيده حينها من العمل أستاذاً للدراسات الإسلامية بجامعة لايدن.

القضية الكبرى: هرمنيوطيقا من أجل فهم علمي للنص

الهرمنيوطيقا، مصطلح قديم تم استعماله في دوائر الدراسات اللاهوتية و هو يشير إلى مجموعة القواعد والمعايير التي يجب أن يتبعها المفسر لفهم النص الديني. كما يدل المصطلح اليوم على "نظرية التفسير"، ولا يزال استعماله على هذا النحو

² كانت مصر من أكثر الدول التي حاكمت محاكمها المفكرين، أساتذة الجامعات والإعلاميين بداية من علي عبد الرازق، فرج فودة، أحمد صبحي منصور، رجاء النقاش، يوسف شاهين ولم يسلم حتى حسن حنفي سنة 1997 من المحاكمة القضائية.

³ وقد انضم إلى جبهته المواجهة كلا من: محمد بلتاجي، أحمد هيكمل، محمد عمارة وإسماعيل سالم، إذ قاموا بتأليف الكتب للرد عليه وتكفيره. وقبالتها تجند الفريق الآخر، فقد أصدرت عدة مجلات بيانات ومقالات تقف بجانب أبو زيد، من بينها مجلة الطريق، العدد 4، 1995، بعنوان: "دفاعاً عن العقل وحق الاجتهاد- دفاعاً عن قضية أبو زيد"، وقد تضمنت عدة مقالات ل: سعد الله ونوس بعنوان "حكم فاجع الدلالة"، كريم مروة بعنوان "قضية نصر حامد أبو زيد والمشروع الجديد للنهضة"، وجيه كوثراني بعنوان "قضية أبو زيد: الفتنة داخل ضمير المسلم". وأصدر عدد من الكتاب والمثقفين العرب وأسرّة تحرير مجلة "النهج" بياناً دافعوا فيه عن الرسالة التي ناضل من أجلها المفكر العربي المصري أبو زيد، حيث كان عددهم 69 مفكراً وكاتباً. وصدر عن مجلة "القاهرة" في عددها 152، لسنة 1995 ملفاً كاملاً عن قضية التكفير يحمل عنوان: "وثائق خطة إعدام مثقف مصري".

مستمراً إلى الآن، و خاصة في الأوساط البروتستانتية. لقد انتقل المفهوم لاحقاً من مجال علم اللاهوت إلى دوائر أكثر اتساعاً لتشمل كافة العلوم الإنسانية مثل التاريخ، و علم الاجتماع، و الأنثروبولوجيا، و فلسفة الجمال والنقد الأدبي. ضمن هذا التوجه، قد استخدم أبو زيد التأويلية أداة أساسية تضيف على النص الديني صبغة علمية. إن القراءة التي يقترحها هذا المفكر، تنظر إلى النص باعتباره منتجا تاريخيا، فتهتمش بالتالي المتعالي والمفارق فيه، فالتاريخية تحجب لحظة التأسيس باعتبارها وحيا. إذ يتساءل في مؤلفه " إشكاليات القراءة وآليات التأويل " عن كيفية الوصول إلى المعنى الموضوعي للقرآن، وهل يمكن للعقل إدراك القصد الإلهي المتضمن في النص؟ وضمن هذا الأفق البحثي، يعتمد أبو زيد على منهج غادامير، إذ تعدد " الهرمينوطيقا عند غادامير بعد تعديلها من خلال منظور جدلي مادي نقطة بدء أصيلة للنظر في علاقة المفسر بالنص، لا في النصوص الأدبية ونظرية الأدب فحسب، بل في إعادة النظر في تراثنا الديني حول تفسير القرآن من أقدم عصوره حتى الآن".⁴

إن فهمنا للنص لا تعني فهم تجربة المؤلف، بل تعني فهم تجربة الوجود التي تفصح/تكشف عن نفسها من خلال النص. ويهدف أبو زيد من وراء هذا الطرح إثبات أن التاريخ من إنتاج البشر، ما يعني أن الإنسان هو الذي يتحكم في مصيره. وإذا كان النص إنتاج ثقافي فيمكن بالتالي معرفة ما يتضمنه في حدود الثقافة السائدة، ما يعني أنه ليس في النص أسرار أو ألغاز محيرة، تمنح لمن يدعي معرفتها سلطة على البشر. و القارئ ليس مطالباً بالإنصات السلبية، حيث يكون النص مسيطراً عليه و متحكماً في عقله ووجدانه. وبالإضافة إلى تجربة الوجود التي يكشف عنها النص، هناك التجربة الحاضرة للقارئ والتي تؤدي إلى تعديل معاصر للنص من خلال إبداع العقل لأحكام، و لمقاصد ولنظريات جديدة وفق الشروط التاريخية التي يعيش فيها.

إن مفهوم النص كما ساد في الثقافة العربية الإسلامية، عند الشافعي مثلاً، يحمل دلالة الوضوح الذي لا يختلف فيه اثنان، لهذا السبب لم يكن يطلق إلا على القرآن. هذا الوضوح لا يحتمل الاجتهاد أو التأويل، في حين أن النص في الدراسات المعاصرة يرتبط بفعل القراءة، والقراءة نفسها تأويل. ويعلق جابر

⁴ أبو زيد نصر حامد، إشكاليات القراءة وآليات التأويل. م-ث-ع، ط 5، 1999.

عصفور في كتاب "مفهوم النص" بأنه يبدأ بداية مغايرة، فالكتاب يجمع بين طرفي الثنائية، أي بين الدلالة الدينية (المتعالية) والدلالة الأنثروبولوجية (المحاثة)، فهذه الثنائية تمثل العلاقة الجدلية الحاصلة بين النص والواقع. إن النص الديني (القرآن) قد مرّ بمرحلتين، الأولى متعلقة بمرحلة التكوّن، التي دامت ما يزيد عن عشرين عاما، حيث استمد النص بنيته الأساسية من الثقافة. أما المرحلة الثانية، فتمثّل بداية تكريس النص بوصفه موجهها وفاعلا في الحياة الاجتماعية. فوجود النص في الثقافة والواقع، بقطع النظر عن أي وجود له في "اللوح المحفوظ"، يسمح بإمكان دراسته علميا من خلال الثقافة. والقرآن باعتباره رسالة يحتاج إلى طرفين هما: المرسل والمرسل إليه، فالمرسل في هذه الحالة هو الله الذي لا يخضع لمعايير وشروط الدراسة العلمية، على خلاف المتلقي الذي يعيش واقعا تاريخيا محددًا.

خاض فكر الفقيد صراعا طويلا ضد ثلاثة سلطات: سلطة النص، سلطة السياسة وسلطة الحقيقة المطلقة، وبالتالي انخرط في "صراع التأويلات" حيث يدعي كل طرف أنه يعمل على "إزالة الأخطاء وتقليص الأوهام".⁵ إن إقامة حوار مع النص اعتمادا على طروحات غادامير لا يحمي صاحبه من أشكال العنف الذي يمكن أن يتعرض له من طرف خطابات الخصم، وهو الأمر الذي يحدث قطائع على مستوى التواصل، "ففي الوقت الذي يدخل فيه غادامير سوء الفهم باعتباره حاجزا داخليا للتفهم، فإن هيرماس طور نظريته للإيديولوجيات بوصفها انحرافا منهجيا للتواصل من طرف المؤثرات الخفية للعنف".⁶

يمكن القول أن المفكر قد سخر حياته للعلم، وقد مات ولم يتمكن مدينوه من إثبات تهمة الكفر، كما لم يتمكنوا من جعله يحيّد أو يتنازل عن طروحاته الفكرية الكبرى. و ما يشهد عليه المجتمع العلمي الواسع ويشيد به هو أنه ناضل من أجل حقوق الإنسان، من جل حرية التعبير، من أجل الحرية الأكاديمية ومن أجل حياته الخاصة.

وقد عاد في نهاية المطاف إلى مصر، إلى وطنه قبل أسبوعين من وفاته، وذلك بعد إصابته بفيروس "غريب" فشل الأطباء في تحديد طريقة علاجه إلى أن فارق

⁵ Paul Ricœur., *Le conflit des interprétations. Essais d'herméneutique I*, Le Seuil, 1969.

⁶ أفاية محمد نور الدين. ، الحدائة والتواصل، إفريقيا الشرق، ط1، 1991.

الحياة صباح يوم الاثنين 5 جويلية 2010 في مستشفى زايد التخصصي، وتمّ دفنه في مقابر أسرته بمنطقة قحافة بمدينة طنطا.

الكتابات: التخليد الأبدي للفقيد

مؤلفات باللغة العربية

الاتجاه العقلي في التفسير، دراسة في قضية المجاز في القرآن عند المعتزلة، دار التنوير، بيروت، ط3، 1993. صدرت الطبعة الرابعة عن المركز الثقافي العربي، بيروت والدار البيضاء، 1996.

فلسفة التأويل، دراسة في تأويل القرآن عند محيي الدين بن عربي، دار التنوير، بيروت، ط2، 1993. صدرت الطبعة الثالثة عن المركز الثقافي العربي، 1996.

أنظمة العلامات في اللغة والأدب والثقافة؛ مدخل إلى السيميوطيقا، إشراف مشترك مع سيزا قاسم، دار إلياس العصرية، القاهرة، 1986. ودار عيون، الدار البيضاء، 1987.

مفهوم النص؛ دراسة في علوم القرآن، الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة، ط2، 1994. والمركز الثقافي العربي، بيروت والدار البيضاء، ط3، 1996.

إشكاليات القراءة وآليات التأويل، المركز الثقافي العربي، بيروت والدار البيضاء، ط4، 1995.

الإمام الشافعي وتأسيس الإيديولوجية الوسطية، ط1 دار سينا بالقاهرة 1992، ط2 مكتبة مدبولي بالقاهرة، 1996.

نقد الخطاب الديني، دار سينا بالقاهرة، ط2 1994، ومكتبة مدبولي بالقاهرة ط3، 1995م. 8. المرأة في خطاب الأزمة، دار نصوص بالقاهرة، 1995.

التفكير في زمن التكفير، دار سينا بالقاهرة، ط1 1995، ومكتبة مدبولي بالقاهرة، ط2 1995.

الخلافة وسلطة الأمة، تقديم ودراسة، دار نهر بالقاهرة، 1995.

القول المفيد في قصة أبو زيد، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، 1996.

النص، السلطة، الحقيقة، المركز الثقافي العربي، بيروت والدار البيضاء، ط3، 1997.

دوائر الخوف: دراسة في خطاب المرأة، المركز الثقافي العربي، بيروت والدار البيضاء، ط1 1999.

الخطاب والتأويل، المركز الثقافي العربي، بيروت والدار البيضاء، ط1 2000م.

هكذا تكلم ابن عربي، الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة، ط1 2002، ط2 المركز الثقافي العربي، بيروت والدار البيضاء 2004.

اليسار الإسلامي: إطلالة عامة، معهد إبراهيم أبو لغد للدراسات الدولية، جامعة بيرزيت 2004.

Ouvrages en anglais :

Beyond The Written Words: Oral Aspects of Scripture in the History of Religion by William A. Graham, Die Welt des Islam, E.J. Brill, Leiden, 1995, 35, 1, pp. 150-152.

Muslim, Jews and Pagans: Studies on Early Islamic Medina, by Micheal Lecker, Bibliotheca Orientalis LV No. 1 / 2, January-April 1998, Column 275-8.

Paradise Lost, Reflections on the Struggle for Authenticity in the Middle East by C.A.O. can Nieuwenhuijze, Bibliotheca Orientalis LVI No. 3/4, May-August 1999, Column 510-513.

Image of the Prophet Muhammad in the West, A Study of Muir, Margoliouth and Watt, by Jabal Muhammad Bauban, Bibliotheca Orientalis LVI No. 3/4, May-August 1999, Column 518-522.

Reforming the Muslim World, by M.A.Shoudhury, Bibliotheca Orientalis, LV11 No.1/2, January-April 2000 column 221-224.

Islamic Banking and Interest: a study of the Prohibition of Riba and its Contemporary Interpretation by Abdullad Saeed, Bibliotheca Orientalis, LV11 No. 5/6, September-December 2000 coulmn 736-739.

Voice of an Exile, by Nasr Abu Zayd (coauthor: Esther R. Nelson), Praeger Publisher, Greenwood Publishing Group Inc. USA, 2004.

Rethinking the Qur'an: Towards a Humanistic Hermeneutics, by Nasr Abu Zayd, Utrecht, 2004.

محمد حيرش بغداد